حسين جميل البرغوثي ترك أتباعاً . . ولم يتبع أحداً

مريد البرغوثي

كان على الموت ان لا يعم ويشيع فينا الى هذا الحد حتى يكون موتك واضحاً ايها الشاعر وحتى يسقط على غيابك ما يليق به من ضوء.

كان على الموت ان يخلي الساحات من الشهداء لساعة واحدة، ويباعد بين غصونهم ببديه حتى نتمكن من رؤية القادم الجديد الآتي من جبال كوبر وتقديم التحية لنعشه الخفيف، نعشه الحساس، نعشه الموهوب، نعشه الشفاف، حيث جبين الشاعر محاط بخصلات الموسيقى التي تستدير اكليلاً لا يغلبه العلاج الكيماوي ولا تغبره النهاية.

الموت الشره الذي مر بجنين ونابلس وطولكرم وبيت لحم والخليل ورام الله والبيرة، وجد وقتاً اضافياً ليمر بقريتك الصغيرة ويصحبك في طريق عودته الى بيته، يغسل وجهه ويديه، يبدل ملابسه ويرتاح قليلاً قبل ان يخرج الى أشغاله المعتادة من جديد ويمارس تخصصه الأخير وهو المتخصص في شؤوننا نحن بالتحديد منذ شبه قرن من الوقت.

كان يطمئن اصدقاءه، فيرتعشون لأجلهم ولأجله، زرته مع محمد بكري وخالد الحوراني، وقد حملا له قبعات ليرتديها بعد ان يأخذ شعره في التساقط، ارتدى بعضها حينا ثم رماها وقال سيعود شعري ولن اموت، وظل يجلس مع تلامذته واصدقائه وضيوفه ويطمئنهم، فيرتعشون لأجلهم ويرتعشون لأجله.

انني لا اريد لكتاباته الجميلة وأشعاره وأغانيه ان تظل سراً من اسراره، اقرأوا دواوين حسين جميل البرغوثي وكتبه، وتوقفوا كثيرا عند آخرها «سأكون بين اللوز» الذي مات دون ان يكمله اجمعوا، ذكرياتكم معه، استعيدوا حضوره الجذاب في كل جلسة، واختلافه عن صورة الشاعر «القديم» والشاعر «الحديث» فقد صنع لنفسه صورته هو، المحاور، المشاغب، الهادئ، الصاخب، الناقد، القوي، الهش، الاستاذ، التلميذ الذي صنع اتباعاً ولم يتبع احداً.

وصلت الى بودابست أواخر ١٩٧٨ فقيل لي «نعرف شاعراً آخر من دار البرغوثي اسمه حسين جميل، كان يدرس هنا وهو انسان رائع، كنت اسمع به للمرة الاولى ثم قرأته بعد سنوات وتعرفت عليه في لقاء لي مع اساتذة بيرزيت ثم في بيت الشعر ثم في بيته في كوبر وفي شوارع رام الله وفي مقهى زرياب عند صديقنا تيسير بركات، حيث تقوم شجرة تايلاندية مورقة كنت قدمتها هدية للمقهى وكانت الشجرة الوحيدة في بيتي في رام الله آنذاك، ولا ادري ان كان جنود اسرائيل قد هشموها بحثاً عن روح الفلسطينيين واسلحتهم المدفونة في نواياهم التي لم تورق بما يكفي بعد.

كان على الموت ان يفسح المجال لعودة الحياة الفلسطينية لأيام او اسابيع اخرى قبل ان يهجم على كوبر ويخطف الشاعر الذي يعد مع مروان البرغوثي اجمل ابنائها.

كان على الموت ان يجعل موت الشاعر مدوياً كجبل ينفلق فلقتين، وراعداً كفراق عاشقين كرهاً وارغاماً وصخباً في ليل ذابل على نعاسه، فالشاعر يستحق ان يفسح الطريق لموته بحيث تقف نجوم القرى وقفة الحرس وضوء القمر يجرح كحد البلطة على قالب الرخام، معلناً هبوط موسيقاك والوانك ولوحاتك من سفوح اللوز الى هدأة الحصى في الوادي الأخير.

حسين جميل البرغوثي، انت لا تحتاج كلماتنا الآن، نحن نحتاج كلماتك.

اذهب يا رجل!

اذهب عن هذه القارات الخمس التي يحكمها جميعا رجل في واشنطن لم يقرأ في حياته بيتا واحداً من الشعر.

اذهب بلا تردد.

وانتظرنا!

ربما نحمل لك اخباراً جيدة.

انطفاء الضوء الأزرق

أمجد ناصر

«كنت أحلمني مسجوناً في برج دائري مغلق، على قمة جبل يطل على جبال من غابات خضراء مشمسة، فجأة تطلق يد خفية رصاصة في رأسي ويتبعها طنين خفيف، وأهوي، ويتكسر البرج منفجراً نحو الخارج، كتصوير بطيء في السينما، وأنا أنظر نحو الغابات والشمس وأهوي معه وفيه، وكنت أرى مصابيح ملونة خضراء وصفراء وزرقاء، مدفونة تحت التراب».

مات الشاعر والناقد الفلسطيني حسين البرغوثي في وضع يشبه هذه الرؤيا التي سطرها في أحد فصول سيرته الذاتية «الضوء الأزرق».. مع فارق انه لم يمت برصاصة بل بما هو أشد منها ألماً ومكابدة: السرطان.

لكنه مات مسجوناً في برج مغلق.

مات في رام الله التي تحاصرها وتقطعها الدبابات أحياء وشوارع معزولة مثلها مثل كثير من المدن والبلدات الفلسطينية التي تحولت، بالمشيئة الاسرائيلية التي لا ترد، الى معسكرات اعتقال جماعية، أبراج مغلقة، ولكن دون اريحية رؤيا حسين البرغوثي.. دون غابات خضراء مشمسة.

كان في بلدته كوبر (... بلدة مروان البرغوثي ايضاً) عندما قطعت الدبابات الاسرائيلية امام انظار العالم أوصال الحياة الفلسطينية، فلم يتمكن من الانتقال الى المستشفى التي كان يعالج فيها في رام الله. تدهورت حالته الصحية كثيراً في الفترة الأخيرة. وقد أسهم الحصار الاسرائيلي في تدهورها أكثر. فالاسرائيليون لم يكونوا يسمحون للجرحى ان ينقلوا الى المستشفيات فما بالك بالمرضى «العاديين».

لم تشهد حرب، على ما أعلم، استهدافاً للقوى المحايدة التي عملها الوحيد هو انقاذ الحياة مثلما كان عليه الأمر في حرب شارون الأخيرة على الفلسطينيين. لا تفسير لاستهداف المستشفيات، سيارات الاسعاف، الطواقم الطبية إلاّ قتل الحياة بالمعنى البيولوجي للكلمة. فالجرحى ليسوا سوى خطأ أو عجز للسلاح، فالمقصود هو ان يكونوا قتلى.

فكم من الجرحى والمرضى ماتوا لأنهم لم يتمكنوا من الانتقال الى المستشفيات؟

لن تعرف ذلك الآن.

ولكن الفاجعة ستتكشف فصولها لاحقاً.

في ذروة هذا الموت الفلسطيني العميم مات حسين البرغوثي، لكنه كان «محظوظاً» أكثر من غيره. إذ أمكن نقله في أيامه الاخيرة الى أحد مستشفيات رام الله. مات محاطاً برفاقه في «بيت الشعر» الفلسطيني.

قال لي غسان زقطان الذي أمضى الأيام الأخيرة الى جانبه في المستشفى: لقد عوضت غيابي عن موت ميشيل النمري وجميل حتمل!

* * *

قد لا يكون حسين البرغوثي معروفاً في العالم العربي لكنه بالتأكيد معروف في فلسطين.

فقد لعب دوراً ثقافياً طليعياً في الضفة الغربية وقطاع غزة (.. وربما في فلسطين المحتلة العام ٤٨ ايضاً) في الوقت الذي كان يفرض فيه الاحتلال الاسرائيلي أمية ثقافية على الفلسطينيين من خلال قطعهم عن السياق العربي.

كانت الأواصر الثقافية بين فلسطين (بكل اجزائها) وبقية العالم العربي شبه مقطوعة.

لا الكتب التي تصدر في العواصم العربية تصل.

ولا سجالات الحداثة والتجديد وصراعات المذاهب الفنية والفكرية تسمع بقوة هناك.

حتى العلاقة مع المشهد الابداعي الفلسطيني في الشتات كانت ملتبسة. إذ بدت لواحد مثلي يعرف الساحة الفلسطينية، أشبه بمحاكاة باهتة.

في وضع معوق، قصداً، كهذا كان لحسين البرغوثي الشاعر والمثقف القلق والاستاذ الجامعي الاستثنائي ما يقوم به.

فهو حاول ان يشبك الكتابة الشعرية في فلسطين المحتلة بالكتابة الشعرية العربية في الخارج. ان يصل ما انقطع. فكتب شعرا متقدما عما كان يكتب في الساحة.. وطرح أسئلة نقدية جديدة، فميزة حسين البرغوثي ليست معرفته بالسياق الابداعي والعربي الأفضل، نسبياً، من غيره من المثقفين الفلسطينيين في «الداخل». بل كذلك اطلاعه على ما يكتب عالميا عبر معرفته أكثر من لغة اوروبية، أهمها، بالطبع، الانكليزية.

ويبدو ان الفترة الأبرز على هذا الصعيد هي التي اعقبت عودته من اميركا بعد نيله شهادة الدكتوراه في النقد المقارن وعمله استاذاً في جامعة بيرزيت.

ففي هذه الفترة بدأ المشروع الإبداعي لحسين البرغوثي يتبلور (.. رغم التشعب الذي انطوى عليه) ويتضح اكثر في المشهد الثقافي الفلسطيني الداخلي، وخصوصا في جيل من الشعراء الشبان الذين كانوا طلابا عنده في الجامعة ورفاقا، لاحقين، في رحلة الكتابة.

فهو، بشهادة كثيرين، كان استاذاً جامعياً لم يعرف طلاب جامعة بيرزيت، التي لا تختلف مناهجها شبه التقليدية عن نظيراتها في الاردن. مثيلاً له، سواء من حيث الأسلوب الحواري في التدريس أو المقاربة المغايرة لمادة الدراسة.

لكن نشاط البرغوثي كان من الاتساع والتشعب بحيث لم يقتصر على حقله الأثير: الشعر، بل تعدى ذلك الى الرواية والمسرح والنقد وكتابة الأغنية.

ومن تابع تجربة فرقة «صابرين» الغنائية الفلسطينية التي حققت نجاحات فلسطينية وعربية ودولية يعتد بها لا بد يعرف أن أهم أعمالها كتبها الراحل حسين البرغوثي بحس يمزج بين قوة تعبير المفردة الشعبية وخيال القصيدة الحديثة.

لا أستطيع ان أموضع، الآن، كتابة حسين البرغوثي الشعرية في السياق الشعري الفلسطيني بسبب من قلقها وطابعها التجريبي ولكنها، بالتأكيد، كتابة مهجوسة بالسؤال الوجودي العميق.

ولعل هذا البعد يتبدى بصورة أسطع في سيرته الذاتية «الضوء الأزرق» التي اعتبرها فريدة بين السير الفلسطينية لما تتضمنه من قلق وتقلبات نفسية وروحية عميقة، وكذلك، ايضاً، لما تضمنته من تحليل ونقد، لا مجاملة فيهما، للذات.

* * *

لم ألتق حسين البرغوثي سوى لقاءين عابرين واحد في الرباط والثاني في عمان، في اللقاء الأخير كنت اعرف أنه مصاب بالسرطان، لكن علامات المرض لم تكن تبدو عليه.

كان ذلك في صيف العام الماضي. كان يرتدي، كما رأيته في المرة الأولى، قميصاً مخططاً وبنطلون جينز وينتعل صندلاً جلدياً، شعره مغلفل يميل الى الشقرة وفوق عينيه الغائمتين (هل هما زرقاوان؟) نظارتان مدورتان..

كان هادئاً.. وربما فرحاً ايضاً. فقد أخبره الأطباء في عمان أنه شفي من المرض اللعين. لكن الفرحة لم تدم. فقد اكتشف ان السرطان كمن قليلاً، غير انه لم يبرح. فهو لا يزال يسكن الرئة. يشاطره الهواء القليل نفسه.

لكن كفاحه الصامت ضد السرطان لم يمتص طاقته كلها ولم يضعف عزيمته على الحياة والكتابة. فقد كتب في سنين السرطان الثلاث أهم أعماله.

.....

سأله أحد الذين لازموه في أيامه الأخيرة بالمستشفى لما وجده ساهماً: بماذا تفكر يا دكتور حسين؟

فقال البرغوثي: أفكر في.. ان التفكير بالجمال يفسده!

.....

أظن أنه مجرد ان يفكر شاعر وناقد فلسطيني في مسألة الجمال وهو راقد على سرير الموت في مدينة محاصرة كرام الله.. هو هزيمة لشارون..

شارون الذي يريدنا أن ندب على أربع.

لندن

في وداع حسين جميل البرغوثي

ماجد أبو غوش

صباح اللوز

كم كان برياً
هذا الفتى؟
كم كان كحلياً
هذا المدى؟
كم كان مؤلماً
هذا الصدى؟

* * *

يقولون إن الأغاني تلصق بالغيم ليصبح المدى أزرق، وإن الفتى كان يركض تائهاً خلف الفراشات والنحل البري باسطاً جناحيه، مغمض العينين، وعلى وجهه كانت الدهشة!.

* * *

كنا فتية وكان جاراً لنا، يناديا فنخرج إليه وفي جيوبنا خبزٌ ولفافات تبغ، يأخذنا الى كروم اللوز ويحدثنا عن غجرية، شعرها ليل ووجهها قمر، عيناها نجوم دافئة ومن ثغرها يسيل العسل، كان منبوذاً خلف سور الكنيسة وكنا نحبه!.

* * *

كنا فتية وكان الليل أزرق!

* * *

كنا فتية وكان هو سرنا...
المفضوح!

* * *

صباح الخير
أيها الولد المشاكس!
صباح اللوز!

* * *

صباح الخير
أيها الولد الأعلى من الموج
صباح الخير
أيها الولد الأنقى من الزبد
صباح الخير!

رسالة الى حسين البرغوثي

طوبى لمن "وراء السياج"

عبد الرحيم الشيخ

أخي حسين،

بوجودك نحن بخير. بوجودك، أنت، بخير .. هناك، «وراء السياج» الذي لم نصله.

كتبتُ قصيدة قبل ثلاث سنين لأحباء كانوا في البعيد عارفاً بأنه قد تأخر ذاك البريد .. تأخر. تأخر الوصول الذي فيه، تأخر هو، تأخرتُ أنا وهم لم يعودوا. لا أعرف ان كان بريدي إليك سيكون أكثر تأخراً، إنه «الوهم» الذي أرقك كثيراً في المكان الذي لم يكن عندك الا «مجمع أوهام عن أمكنة أخرى» .. الوهم ذاته، يالعزيز، أيقنني بوصول بريدي في زمان صحيح أكيد اليك، زمان لا يعرف ساكنوهُ الجغرافياً الا بوصفها وهماً، ولا يتذهنون العالم الا خالياً من المكان. هل تخيلت العالم بلا مكان، يوماً، يا حسين ؟ ألست فلسطينياً ترى أثيرية الوطن، تجرداً أو عياناً، منحازةً الى جغرافياً فككها خلود الزمان ؟ ألم تعلم حواريك عشق رامبو ليكون بينه، في الأمس، وبينهم، في اليوم، أكثر من قربى؟ ألم يصل بريدُك قبل كل بريد يقول العلاقة بين أوهام رامبو الصغيرة وأوهامنا، يقولها جلاء طريق الى اليقين اللايعرف جغرافياً؟ لا أقود أوركسترا بلا نوتتها، هنا يا رفيق دربنا، بل أحاور فيك المسافة التي اليك ... أحاولها.

أخي حسين،

بوجودك نحن بخير. بوجودك، أنت تماماً، أنت بخير .. هناك، «وراء السياج» الذي لم نصله.

نعلم أننا لن نرى عيناً تراانا في تعيننا وتعينها، لكننا ندرك أنها ترى، من البعيد، توقنا للرؤيا، وترى الآن، من بعدها، من «يحرسون الكلام من الخلخلة» .. فها بعدك الآن من يحيلون رماد العيون الى مراياك، سائلةً، فـ«بعض العيون مرايا، وبعض العيون غبار» تقول «مرايا» ك. نعرف ان الزمان لم يكن لنا، ولم يكن علينا تماماً في شهور مضت، ولربما نعرف أكثر ما عرف درويش، فلم يحالفنا الزمان مرة لنطمح بالمرتين ... ولكننا نعرف ان الزمان حالفنا بك لنعرف من نحن ؟ ومن هم؟ حتى في أحلك الليل الذي غارت فيه، بالتفاصيل كلها أو بلاها، الى مكانك «الآن» نعرف اننا باقون، مثلك، هنا.

لسنا بحاجة الى تأويلات يونج، التي أرهقتك كثيراً لتوصلها، لنعرف ان عجزنا عن تأويل أحلامنا بالنصر لا يعني اهتزاز الوضوح فيها، بل يعني عدم الامكان في اكتشاف «واجهة احلامنا» التي هي خيط واقعنا المنطقي والتراجيدي الذي يحاول الحفاظ على رابط المعقولات التي ترد في حلمنا، وصيانتها من عفونة الخلق العالمي الذي أتاح للغطرسة الاسرائيلية حشر مربعها الجرائمي، الذي تبسطه سماءً على الأرض الفلسطينية وما فيها من بشر وشجر وحجر، في دائرة الدفاع عن النفس، وعن شرف المعنى في «الديمقراطية الوحيدة في غابة الشرق الأوسط». لفهم هذا الحشر، لا نحتاج تأويلات يونج، ولا نحتاج منطق خياله لفهم البرادوكسات التشاركية التي تنتجها البروبوغاندا الاسرائيلية، وتروجها دماغوغيا الاعلام الأميركي التي تتهم كل من يحكم على دمنا بالحمرة بالانحياز والتواطؤ واللاسامية والطعن في ذاكرة الهولوكوست ... بل نحتاج اعادة انتاج اليقين بصدقية واجهة أحلامنا.

تعلمنا العقلانية الكانطية، كما درستها هناك في بيرزيت، أن الأسطورة كانت سبباً في ظهور اللغة، وانما ظهرت اللغة وتاريخيتها الجمالية للحفاظ على الأسطورة، بمعنى أن الأسطورة هي اللغة البدئية التي كان الوجود البشري قد أنتجها، خيالاً، نتيجة لافتقاره الى اللغة التي يعبر بها، عقلاً، عن تجربته مع الحياة والطبيعة وماورائهما. أنتجها الانسان في خداجة المعرفة، ونحتها على صخور أقل صلابة من أدمغة الحافرين المحتفلين بمجهولية الطقس لا بمعقولية الداعي اليه. والاسرائيليون اليوم، يا رفيق دربنا، يعيدون تاريخ المعرفة الى خداجته الأولى، اعادة بالنار والحديد لا بالنحت الاختياري لهدف تخليد الطقس الذي أسعف أصحابه من ضرورة اختراع اللغة. يمكن للاسرائيليين، اليوم، وغداً ان أرادوا، أن يخترعوا لغتهم الخاصة، لغة الارهاب الذي تروجه آلة الديماغوغيا المانوية التي تقسم العالم الى خير وشر مطلقين كقسمة بن لادن الضيزى، او أضل سبيلا .. ولكن الأجدى للاسرائيليين أن يعيدوا اختراع «ملاذ» الأسطورة لمجانبة اختراع لغة تقنع العقل.

لا تحتاج الأسطورة الا الى ذاتها وأحرفها الشوهاء لتدخل حيز البث، أما اللغة فتحتاج أدوات الحوار التي يفتقدها اللسان العبري الهجين. فالعقلية الاسرائيلية «تشقلب» تاريخ فلسفة الخطاب، وتعدم كاسيرر ولانجر وستراوس، حين «تنجز» مغالطتها الكبرى من خلال استبدال التحول الرمزي للغة بالتحول المرموزي للأسطورة في خطوة أولى، وأسطرة التاريخ بكليته في الخطوة التالية ! .. ونكتفي نحن، نعم، نكتفي، بالمعرفة، وأحلام صغيرة بالوصول، ويقين كبير بالحقيقة. وتكتفي انت بما أنجزت من معرفة، وحلم، وانتظار لتجاوز السياج، وتصعد، عسيراً، الى ما بين لوزك.

أخي حسين،

بوجودك نحن بخير. بوجودك، انت، بخير .. هناك، «وراء السياج الذي لم نصله.

أعلم أنهم هناك، يطاردون نوايانا، ويحكمون علينا بالفناء لأنهم اكتشفوا أن «شفرة التوراة» تؤكد القرابة بين الفلسطينيين و«العماليق» ... يعودون الى نسقية الفكر النباتي هؤلاء العابرون، يغلقون نوافذنا ونوافذ العالم التي علينا ليهزموا «لا سامية الكاميرا!» يقتلون الجميع، ويخفونهم في الغياب، ليعم «السلام النهائي» على هذه الأرض، ولتمت «بهائم كافكا بسلام»، فهي غير قادرة على الاحساس بالجغرافيا. انهم يقرأون روسو، أحياناً، ويؤلونه بأكثر مما يجب. انهم يعرفون أنه، في «إميل» لا يرى فرقاً بين الطفل والبالغ الا بالتعبير عن «هاجس الجغرافيا» .. فالأول لا يعرف ان الجنة في مسقط الرأس وأن النار خارجه، لكن الثاني يرفع مسقط الرأس ليصبح الجنة ويجعل النار خارجه ... الأول لا يجعل من عرقه فيصلاً ولا من ديانته مسطرةً، والثاني يلقي الخطيئة على أهل روما لأنهم لم يولدوا في مكة ! وبذا، فالشر الاسرائيلي، يا صاحبي، ليس شراً قيمياً قياساً الى قيمية الخير الأليف، بل هو شر غارق في دعم «الايجاب» الفلسفي للوجود الاسرائيلي الكياني، والكينوني، على ارض اللامعنى، اي، هو شر لدعم «ايجاب» اللامعنى.

تلاحظ ذلك، مثلاً، هناك وهنا، فالاعلان عن «الخسارة» الاسرائيلية له السبق على كل خسارة فلسطينية، ولا وجود للفلسطيني في خارطة الضحية، ولا وجود له حتى في خارطة الجلاد القابلة للشرعنة .. هو حال، بالضرورة المنطقية، في دائرة اللعنة أو الشيطنة التي لا مبرر لوجودها لا تجريداً ولا تعييناً. لا أظن ان شيئاً غريباً يداهم هذه المسألة، فالأسطورة الآدمية، عندما تنغلق في تيارها الهابط عجزاً عن ادراك كل ماهية تجاورها او تشاكلها فإنها تنفتح الى «أعلى»، تنفتح نحو المطلق الأسطوري الذي يشكل مرجعية الافحام، نحو أفق الثيولوجيا المنتجة لمطلقاتها والمنتجة لخارطة العبوديات الملحقة بهذه المطلقات. وفي الحالتين فان سمة الاحتكار تطفو على السطح ليحتكر منتجو الأسطورة مطلقاتها وخرائط العبودية التي انتجتها في آن معاً ... لكن شهداءنا بعودتهم الى الأرض، واخصابها، انما يمارسون انتماءهم الخاص هناك، بلا مؤتمرات صحافية ولا تغطية محايدة او ضدية أو بين بين.

أخي حسين،

بوجودك نحن بخير. بوجودك، أنت، بخير .. هناك، «وراء السياج» الذي لم نصله.

بعد ان جادلني في الشهر الأخير صاحب في أنطولوجيا العبث، وكتابات ميرسيا الياد، و«الى أين يذهب الشهداء؟» بعد الملصق والتابين، أو بلاهما، حين يدسون في بيوتهم الأخرى، فرادى او زرافات، بعد خمسة عشر يوماً في الانتظار (كم أصبحت المدافن بيروقراطية في هذا الزمان يا صاحبي!)، وبعد ان أثقلنا الآخر، الضروري، بهاجس الموت وواقعه، والى آخره .. حرت في الموت يا صاحبي. سألت ما الموت؟ أولادة اخرى بالطقس ؟ ام هو الطقس الذي يفرض حضور الولادة بفعل القداسة: ثقلاً، وهاجساً، وسلطةً لا تزول ولا تدول؟ تقت الى معرفة جغرافيا الموت حين عرفت انه لا تنعدم الانطولوجيا بوقوعه، بل تغير حالاتها، وتنفصم هوية اعتيادها: فترجع عايناً جسدياً الى عيان الأرض (من تراب أتت، والى تراب تعود)، وتصّاعد تجريداً روحياً الى أثير السماء (فهي لها، واليها الرجوع) ... وتبقى هناك، هذه الروح، تطل من نافذة العدم على الذاكرة، أو تبقى، هنا، فينا تجوهراً لا يمسه العدم بسوء، وعدماً لا يبلغ للوجود سبيلا، واشتراك بين الحالتين ينثر ملحه، أسود صارماً، في عين المعقول القابع خارج التعيين !

فهل تعين المعقول ضرورة يا صاحبي ؟ «لا» .. لا بأس، اذن، ان لم يكن في الامكان تعين المعقول، لكن تعيينه يبقى ضرورة، فسيد المعقولات كلها مخارج للتعين، ولكن تعيينه حاصل دائماً ! ولكن، هل تتساكن الأضداد، او هل يمكنها حتى ان تتحايث، ليكون الموت امكانية وجودنا الكبرى؟ هل كان أفلاطون مخطئاً حين جعل الموت خلقاً استعلائياً عابراً لنماذج المرذول من حياة البشر على ارضهم المرذولة؟ ام هل كان غيره مصيباً بتوصيف ظاهرة الانتباه بأن لا تحصل لها الا بالموت، ولا بزوغ لفجرها وانفجارها الا بعد تحققه، ولا اكتمال للكائن الا بموته؟ هل كان هايدغر محايداً حين أغرقنا، سلواناً، بتجاوز الوجود والعدم حيناً، وحيناً بانبثاق الأول من الآخر؟ ما الموت، اذن؟ هل له جغرافيا؟ هل له زمان؟ هل يترمد فيهما؟ ام انهما يترمدان فيه حين يصبح هو منتج جغرافياه وزمانه وما بهما من فرادة مفترضة ؟ هل للموت جهات غير الصعود؟ هل هو أثيري أبيض يخارج السطح والبعد الثالث؟ هل هو البعد الرابع الذي فيه تتوازى الهويات وتندغم الذوات بصفاتها؟ هل هو اللامعقول بامتياز؟ ام هو «لعبة المتاهة» في تجربة ديفير، والخروج منها في تجربة الغنوص، وصناعتها في تجربة العقل؟ هل يشترك الراحلون في الوظيفة الروحية للموت؟ هل يستبدلون نمط الأنطولوجيا بتحرير المعنى من لا معناه؟ هل للموت خيريته الخاصة؟ أم هو عبث الماوراء الضحل الذي يتم عبوره بالملاء الخالص الى ما «وراء السياج» .. احترت يا أخي حسين، و«احتار الدليل» كيف اخلص فتنة الرمز في حضور الموت من هجاء الانخطاف الذي يعقبه ... زرته (قبل ان يزورني!) زرته زيارة البسطامي للبيت وصاحبه ثلاثاً: فرأيت مكانه في الأولى ولم أره، ورأيته في الثانية بلا المكان، وفي الثالثة اختفيا معاً! هل تظن ذاك هو عين الوصول الذي بلغه النفري حين وقع في الظلمة فلم ير شيئاً، وأبصر نفسه .. فوصل؟ أمن «حقائق» اخرى وراء السياج ؟

الراحل حسين البرغوثي

أخي حسين،

بوجودك نحن بخير. بوجودك، انت تماماً، انت بخير .. هناك، «وراء السياج» الذي لم نصله.

تعبتُ من معاينة الموت، خجلت من قراءة الفلسفة، تراجعت عن العودة، وعدت الى تأمل حزنك الثقيل على الذات التي لا «تحرر مكبوتاتها»، ولا «تطرد أشباحها» بالكتابة، بل تعرض ذاتها هي كـ «وجود شبحي» على هذه الأرض تتنازعه أرواح الفواعل الأخرى .. تأملتك، على حائطي وفي، وذكرني صاحبي ان الخامس من أيار يوم مولدك، فكتبت شعراً: كتبت عنك، عن المدينة، عن النساء، عن الله، عن قلبي، عن حيرة الدليل، عن تأكيدا، كتبت، وليلى .. وكتبت عن سريري. آخر ما كتبت كان عن سريري، فأقرأ كما تريد، واكتب ما تريد، وزر حين تريد .. فكلي شوق اليك.

«هذا سريري»
مستفيق منذ مولده على نومي
لا شيء يسكنه سوى ورد وغيب لا يجف
هو مركب للاعبور .. هو العبور، يقول رع:
«من هنا تبدأ. من هنا تنتهي. من هنا تمر. ههنا تقف».

هذا سريري
حوله تنمو المسافة كي تخارجني
أفاجعها بصمت دائري كي تفاجأني ببعض حوافها
لا شيء يعبرها سوى ظل الغوايات القديمة
لا قديم يضيؤها، أبداً، سواي

هذا سريري
مر النهار عليه في يومي مراراً
مر ليلي، مرت الأضواء خافتة، ومرت فيه امرأة، نساء
لم تنل من سره ما نال منها
مر سري، فيه، مر، ولم يره.

يوتا- الولايات المتحدة